

الخصائص الأسلوبية في
رسائل الإمام جابر بن زيد
الأزدي (ت: 93هـ)

أ. زكريا بن ثاني بن سعيد الحسني

وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

الملخص:

يهدف البحث إلى الكشف عن الخصائص الأسلوبية في رسائل الإمام جابر بن زيد (ت: 93هـ)، وتوضيح تلك الخصائص من خلال استقراء الرسائل كلها، وما يميزها من جوانب عدة.

كما حاول البحث أن يبيّن الخصائص الخارجية والخصائص الداخلية للرسائل، ومعرفة ما تخفيه تلك النصوص من أوضاع سياسية محيطية بالإمام، وما يعيشه من أوضاع اجتماعية ذات أبعاد مختلفة.

ودرس البحث الشكل العام للرسائل، وما تحمله من دلالات أسلوبية، وكيف استطاع الإمام في تلك الفترة المبكرة أن يضع منهاجاً علمياً واضحاً وثابتاً في شأن الكتابة، والكشف عن أدبيات الألفاظ المستعملة، ومدى وضوحها أو غموضها، وحسن التعبير، وجمال الأداء، واختصار الفكرة في مواضع منها، والإطناب في مواضع أخرى، وما يحمله هذا الإطناب من دلالات حاولت استقراءها في البحث، والكشف عن تأثير الإمام بألفاظ الخطاب القرآني، ووضوح العاطفة في بعضها، وما تحمله تلك العاطفة من دلالات.

كما بيّنت فيها بعض الأساليب المستعملة بشكل ملحوظ ومتكرر، وكيف أثرت في المخاطب، ومنها كثرة استعمال الإمام لضمائر الخطاب، والجمل الشرطية.

Abstract:

The research aims at revealing the stylistic characteristics in the anthologies of Imam Jabir Bin Zaid. It also aims at clarifying these characteristics by extrapolating all the messages, looking at its features from different aspects. The research also attempted to show the external and internal characteristics of the anthologies. Moreover, it endeavors to find out what psychological characteristics do these texts contain in addition to the description of political situations that surrounded the Imam, and the social circumstances he lived in.

The research also focuses on the study of the general form of the anthologies, including the stylistic implications, and how the Imam in that early period was able to utilize a clear and consistent scientific approach to writing. The research tries to uncover the literary style used, the clarity or ambiguity, the effective expression, the beauty of performance, the occasional exaggeration of the emotion, and the meanings carried by these emotions. The research also shows some methods used predominantly, and the influence of the Quranic discourse in his expressions and how it affected the addresser himself, keeping in view that the Imam's has heavily used the pronouns of in his discourse as well as of conditional sentences.

المقدمة:

تُعد رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي العماني -رحمته الله- الذي عاش في البصرة في القرن الأول الهجري، ورسائله التي كان قد أرسلها إلى مجموعة من طلابه أو أصدقائه باكورة التأليف والكتابة العربية التي يجب دراستها والتوقف كثيرا أمام تراكيبها، وتسليط الضوء على خصائصها وسماتها؛ لأنها بمثابة سابقة أدبية وعلمية.

ولم أطلع -فيما توفر لدي من مصادر- على دراسة أدبية لغوية تناولت رسائله قيدَ الدراسة، سوى ما قام به المحقق في مقدمته⁽¹⁾ من تسليط الضوء على العنصر الشكلي للرسائل.

وقد قسمت البحث إلى مبحثين: الأول يدرس الخصائص الخارجية، والثاني يدرس الخصائص الداخلية.

تناولت في الخصائص الخارجية البناء الخارجي للرسائل، وعناصرها الثابتة التي تكررت في كل الرسائل أو معظمها. وحاولت تحليل كل عنصر من عناصرها مع ذكر المثال الوارد في النص المدروس، ثمَّ عرَّجت على الطابع العام للرسائل من حيث وضوح الألفاظ، أو غموضها، وجمال الأداء وروعة العرض، والخصائص التركيبية، والسمات الأسلوبية، واختتمت المبحث الأول بمواضع الاقتباس الواردة في النص.

ودرست في المبحث الثاني الخصائص الداخلية للرسائل، فابتدأت بالأساليب اللغوية الشائعة في الرسائل، مع ذكر موضع كل أسلوب ومحاولة معرفة الدوافع النفسية خلف هذه الأساليب، وتطرقت إلى عنصري العاطفة والإحساس الواردين في الرسائل وذكر مواضعهما وتحليل بعض ألفاظهما.

ولا أدعي الإحاطة الشاملة بالخصائص الأسلوبية الواردة في الرسائل، وإنما هي محاولة علمية تفتح الباب أمام الباحثين لدراسات أخرى.

تمهيد:

اسمه ونسبه: هو الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد اليعمدي الأزدي الجوفي البصري العُماني، وُلِدَ في منطقة فرق بمدينة نزوى العمانية. ولا تُعرف السنة التي ولد فيها على وجه التحديد. وتُعطي المصادر تواريخ مختلفة إلا أنها كلها محصورة بين عامي 18 و22هـ، ولا تذكر المصادر المتوفرة أيضاً تاريخاً لقدمه إلى البصرة، ويبدو أنه جاء في وقت مبكر من حياته طلباً للعلم؛ إذ كانت البصرة آنذاك أهم مركز فكري في العالم الإسلامي، أو كما يقال: كعبة العلم والعلماء، واستقر بين أقاربه من الأزدي الذي سكنوا أحد أحياء البصرة⁽²⁾.

عاش أغلب حياته في البصرة يأخذ العلم من الصحابة والتابعين، وكان لا يتخلف عن موسم الحج، "وقد أخذ علمه عن عدد كبير من الصحابة إذ يروي عن نفسه: "أدركت سبعين بدرية فحويت ما عندهم إلا البحر"⁽³⁾ يقصد: ابن عباس. وهذه المكانة العلمية أكسبته مكانة ومرجعية مهمة في البصرة خصوصاً.

الحالة السياسية:

بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدين، ظهرت بعض الفتن التي ألهمت العالمين العربي والإسلامي، وكان الإمام جابر بن زيد يمثل المجموعة التي تعترض على خلافة بني أمية، ولم يستطع إظهار اعتراضه أو الخروج عليهم؛ لشدة ظلمهم وبطشهم بمعارضيتهم؛ ولذلك اشتغل الإمام في الخفاء من أجل تأسيس المذهب الإباضي وإرساء قواعده الفقهية والأصولية، "وتشير المصادر عندما تترجم للأئمة الأول إلى حوادث تدل دلالة واضحة على أن جابر بن زيد كان واضع أسس التنظيم السري الذي أتى أكله بعد وفاته في آخر عهد الخلافة الأموية"⁽⁴⁾.

واستطاع الإمام بذكائه أن يسلم من بطش الحجاج بن يوسف الثقفي، رغم شكوك الأخير فيه، إلا أن الإمام كانت تربطه علاقة قوية مع كاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم، الذي كان يهون أمر جابر لديه، وقد جمع بينهما، فاقترح عليه القضاء فرفض⁽⁵⁾.

وعاش الإمام في فترة سياسية حرجة، ومرحلة انتقالية مهمة لصنع شخصية قيادية على مستويات عدة: فقهية، وسياسية، وعقدية.

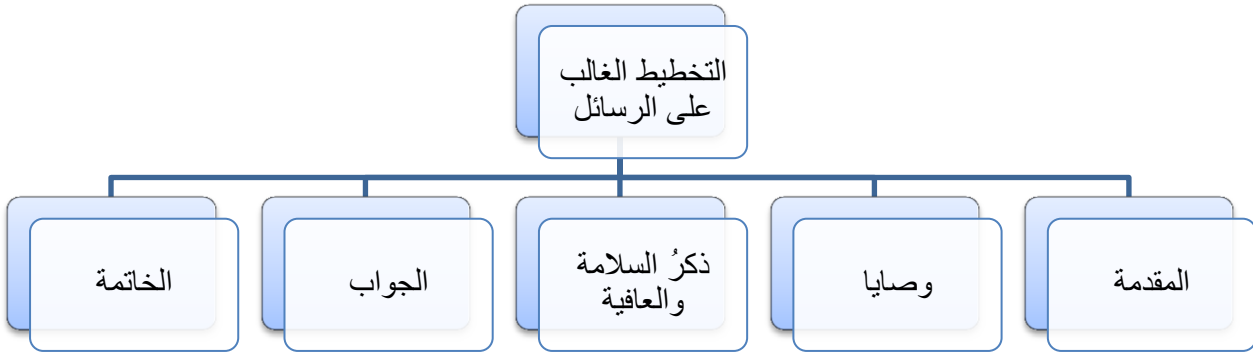
مؤلفه، ووفاته:

كان الإمام جابر بن زيد من أوائل من أُلّف في الإسلام، وله ما يعرف بديوان الإمام جابر، في العقيدة والحديث والفقه، إلا أنه فُقد، وقيل: لم توجد له إلا نسخة ببغداد فنيت عند غزو المغول، ونسخة ببلاد المغرب الإسلامي فقدت بسبب التنازع الإباضي هناك⁽⁶⁾. وعُرف له طلاب كثيرون، منهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، والربيع بن حبيب الفراهيدي، وعبدالله بن إياض التميمي، وتوفي سنة 93هـ.

المبحث الأول: البناء الشكلي

المطلب الأول: شكل الرسائل العام

يتبع الإمام جابر بن زيد نسقا خاصًا في البناء الخارجي لرسائله، وهذا النسق ظاهر في أغلبها عدا بعضها التي قد تختلف في الألفاظ، أو الحذف؛ مما أمكن أن نضع لها تصورا شكليا عاما، وهذا النسق في الحقيقة يعكس مدى المنهجية الكتابية التي سار عليها الإمام وهو في القرن الأول الهجري، وكأنه يضع خطة بحث متعارف عليها في العصر الحديث، لا يخرج عنها إلا في بعض الرسائل على سياق مختلف، كما هو موضح في المخطط الآتي:



الشكل رقم (1) يوضح طريقة تخطيط الإمام لرسائله

مقدمة الرسائل: وتتكون المقدمة من عناصر محددة ومتشابهة، فتبدأ كل الرسائل (بالبسملة) عدا الرسالة الثالثة. وواضح أنها سقطت من الناسخ كما يقول المحقق⁽⁷⁾، أما العنصر الثاني من عناصر المقدمة فيحتوي على اسم المرسل والمرسل إليه، وهو أيضا نسقٌ مضى عليه في كل الرسائل، عدا الرسالة الأولى التي ظهر فيها السقط واضحاً، فكانت بدايتها: "والذي... بدراهم ضخمة"⁽⁸⁾، وهذه البداية تبدو واضحة في غير مناسبة للبدايات السابقة، وعدم تناسب ابتداء المعنى منها؛ مما يؤكد وجود سقط في بدايتها.

وأما العنصر الثالث من عناصر المقدمة، فيحتوي على صيغة السلام (سلام عليك) بصيغة التكرير، ويتبعها (فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو)، عدا الرسالة الثامنة التي اختلط فيها الحمد والسلام، فقال: (فإني أحمد إليه الله -بعد السلام- الذي لا إله إلا هو)، فجعل السلام جملة اعتراضية بين صيغة الحمد، وهو أمر تعجب منه المحقق، ولا يعرف له جواباً -كما يقول- ولعله أملاها متأخراً فلم يرد أن يمحوا ما كتبه، فجعلها اعتراضية بين الحمد⁽⁹⁾.

الوصايا: هذا العنصر من العناصر الشكلية في الرسائل مهم وجاداً للغاية، فقد كان يعني للإمام شيئاً مهماً يحاول تأكيده، ولا يمكن التنازل عنه؛ لدرجة أن الوصايا قد تفوق الجواب أو الغرض الأساس من الرسالة، فحينما يرد إليه سؤال فقهي، ثم يبتدئ بالمقدمة ويعرِّج على جملة من الوصايا قد تفوق كلماتها ضعف أو أضعاف الجواب الفقهي، فهذا يؤكد أهمية هذا العنصر بالنسبة إلى الإمام جابر بن زيد.

وتتحدث الوصايا كلها عن المواعظ والتذكير بالدار الآخرة، وأهمية التقوى، ومكانة الإخلاص لله تعالى، والتحذير من النفاق والشقاق، ففي هذا العنصر محاولة من الإمام جابر بن زيد التركيز على الجانب الوعظي والإيماني، وتنبيه السائل إلى أن هذه المسائل أهم من أفعال الصلاة أو الحيض أو الطلاق، فهذه المواعظ هي منطلق العمل والدعوة والفقهاء والعقيدة، وإذا حاولنا أن نمزج بين وظيفة الإمام في الفقه الإباضي، وهي التنظير والتأسيس، فسنجد أن هذه الوصايا كانت تمثل بالنسبة إليه نواة يودُّ بثَّها عبر جواب فقهي.

الاطمئنان على السلامة والصحة: ولهذا العنصر مكوّن أساس من المكونات الخارجية للرسائل، فبعدما ينتهي الإمام من بثِّ وصاياه الإيمانية يدخل بعبارة: فإننا نخبرك من خبرنا أنا سالمون صالحون، وتكرر هذه العبارة في معظم الرسائل، وأحياناً ترد عبارة أخرى بالمعنى نفسه، فقد وردت في الرسالة السابعة: أما بعد، فإننا وربنا محمود، ونحمده إيلينا في أمرنا كله كالذي تُحبُّ من العافية والسلامة، وأحياناً عبارة: فإننا كتبنا إليك ونحن بخير من الله ونعمه متظاهرة لا يحصى عددها، ولا نبلغ شكرها، في الرسالة الثامنة، ووردت في الرسالة التاسعة: فإننا بخير وعافية من الله، وفي الرسالة العاشرة: فإننا نحمد إليك الله في حسن الثناء عليه في طلب منا وإيلينا، وفي الرسالة العاشرة قريب من التي سبقتها.

وهكذا انتهج المعنى نفسه، إلا في رسالتين: الخامسة عشرة، والثامنة عشرة، إذ لم تكتب فيها مثل هذه العبارات، ولعلَّ الإمام جابر بن زيد ينتهز فرصة الجواب على المسائل الفقهية في تضمينها حالة الأوضاع الشخصية من صحة ومال وسياسة، فجعله مكوّنًا أساساً من مكونات الرسائل⁽¹⁰⁾.

الجواب الفقهي: وهذا هو موضوع الرسائل أساساً، وفيه يبسط الإمام جابر جوابه الفقهي على ما ورد إليه من أسئلة، ونلاحظ أن الإمام يتبع نسقاً واحداً في الإجابة على الأسئلة، وهو نسق التفريع بالأداة أمّا: وهو حرف شرط وتفصيل وتوكيد يتضمن معنى الجزاء، وتلزم الفاء في جوابه، وهذه الأداة -فيما يبدو- أكثر دقة ووضوحاً، وقد استعمل القرآن أسلوب التفصيل هذا في الإجابة على التساؤلات، كما جاء في سورة الكهف: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۸۰﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ**

أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿۷۹﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿۸۰﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿۸۱﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ

فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ، عَن أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

﴿الكهف: ۷۹ - ۸۲﴾ . وقد يطول هذا الأسلوب أو يقصر على حسب المسائل

الواردة، إلا أنه لا يطيل فيها الوقوف كما يطيل في الوصايا.

ويشكل هذا الأسلوب لونا أدبيا جميلا، فهو مرادف في الحقيقة لمعنى الدقة، فالإمام دقيق في عرض فكرته من خلال هذا الأسلوب التقريعي. وتعدُّ الدقة سمة من سمات البليغ؛ لأنها تعني استيفاء الصورة للمعنى لديه، بحيث لا تجد خلافاً فيه أو نقصاً في جوانب المعنى المراد إيضاحه من خلاله.

خاتمة الرسائل والوصايا: ويجعل الإمام خاتمة رسائله صيغة (السلام عليك)، وأحيانا يسبقها بعض الجمل العاطفية كما في قوله: (اكتب إليّ بحالك، واعلم أنك ممن يعجبني صلاحه وعافيته.... والسلام عليك)، وهذه الصيغة قد تخلو منها بعض الرسائل، و يكتفي منها بالسلام، أما الرسائل التي خلت من خاتمة السلام مطلقا، فهي الأولى والسادسة فقط.

ويرى الباحث أن هذا البناء المتماسك من الشكل الخارجي للنص يقودنا إلى النواة الأولى للمنهجية العلمية في الكتابة الأدبية، وأن العقلية التي كتبت وأملت لم تكن إلا انعكاسا لقدرته على التخطيط والتنظيم.

المطلب الثاني: الألفاظ بين الوضوح والغموض.

امتازت الرسائل بالوضوح في العرض، ويعرف الوضوح بـ "سهولة الوصول إلى ما يريده الكاتب وسرعة فهم مراده، وعدم تعثر العقل في إدراك مراميه، وهذا ما يعنيه الأقدمون بقولهم: أن يقع المعنى في النفس في نفس الوقت الذي يطرق المبنى الأذن"⁽¹¹⁾، وعليه يكون في الاتجاه المقابل الغموض، ويختلف الهدف من هذه السمات بحسب مراد الكاتب، فأحيانا يكون الغموض صورة فنية رائعة يستطيع الباحث توظيفها في خدمة نصّه، وأحيانا يكون عيبا قادحا لا يمكن أن يخدم النص، وهذا ما يحدده المقام أو السياق.

وفي رسائل الإمام جابر لا يلبث القارئ كثيرا في قراءة وفهم نص يعود إلى القرن الأول الهجري، فألفاظه مفهومة وواضحة، عدا ما سقط من خطّ الناسخ، أو غمض على محققه نقله، وينتقي الإمام كلمات سهلة على المتلقي، ولا نستطيع بحال إحصاء الكلمات السهلة والواضحة؛ لأن الرسائل كلها على نسق متشابه من الألفاظ، لكننا سنورد بعض الألفاظ التي نراها غامضة شيئا ما، رغم أنها قليلة جدا، وهي:

يهرق: وقد وردت في قوله: "وأما ما ذكرت من رجل يحرك ذكره حتى يهرق.." (12)، وجاء في المعجم: "وأصل هراق أراق يُريقُ إراقَةً، وهو صب الماء" (13).

غب: وقد وردت في قوله: "وعند ذلك عرف المتقون غبَّ التقوى وعاقبتها..." (14)، وجاء في المعجم: "غِبُّ الأَمْرِ وَمَعَبَّتُهُ: عاقبته وأخِره. وَعَبَّ الأَمْرُ: صارَ إلى أخِره" (15).

ذليقة: وقد وردت في قوله: "فإن الله جعل أولئك ألسنة ذليقة يستنطقها الله..." (16)، وفي المعجم: "يقال: لسان ذَلِيقٌ: أي حديد، وفي لسانه ذَلِيقٌ وذَلِاقَةٌ: أي حدة" (17).

الفساطيط: وقد ورد في قوله: "وأما ما ذكرت من الإذن والتسليم في الفساطيط والأخبية.." (18)، وجاء في المعجم: "والفُسْطَاطُ: ضربٌ من الأبنية، والجميع: الفَسَاطِيطُ" (19).

يخلب: وقد ورد في قوله: "فإن الله لا ينخدع للناس، ولا يخدع ولا يخلب" (20)، وجاء في المعجم: "هي من المُخَادَعَةِ، وَقِيلَ: الخَدِيعَةُ باللسان" (21).

ويرى الباحث أن هذه الألفاظ، رغم ندرتها أمام الكمّ الهائل من الكلمات الواضحة الجلية في الرسائل، إلا أنها لا تعد مشكلة، ولم تكن غامضة في القرن الأول الهجري، فهي مستعملة كثيرا وشائعة الاستعمال في زمانه، وحتى بعده.

ولعل المقصد من شدة وضوح ألفاظ الرسائل هو مقامها الفقهي والوعظي، فالإمام ليس بصدد إبراز قصيدة شعرية أو مقامة أدبية، وإنما كانت رسائله تحمل طابعا فقهيا واجتماعيا، وأحيانا يكون سياسيا، وهذا المقام يتطلب منه الوضوح وإبراز المعاني في قالبها المعروف، لا سيما إذا أضفنا إلى هذه الغاية علمه أن رسائله قد تُقرأ على العامة والخاصة، فهي بمثابة فتوى يعمل بها الناس.

المطلب الثالث: المميزات الجمالية

لم تكن الكتابات القديمة متكلفة في الصنعة، وهذا راجع إلى طبيعة الكاتب أو المملي، فهو يكتب على طبيعته وسجيته من غير تكلف أو شقاق في الألفاظ أو الأساليب؛ ولذلك اكتسبت النصوص القديمة؛ لكونها في الفتوى وتخاطب العامة، فهي تنزل إلى مستوياتهم في الخطاب، وهذا مما تفرد به الإمام؛ لأنه على نِكرٍ من مستويات من يخاطب.

وقد تميزت رسائل الإمام جابر بن زيد بكمّ كبير من:

- (1) الروعة في الأداء.
- (2) القدرة على توصيل المعلومة بأقل جهد لغوي.
- (3) الولوج إلى قلب القارئ أو السامع من خلال تلك الأساليب.

وفيما يأتي نماذج منها:

1- **تلطيف فعل الأمر بالجمل الاعتراضية**، كما في قوله: "واعلم أنك -أصلحك الله- بأرض أكره أن تذكر لي فيها اسما، فلا ترو شيئا مما كتبت به إليك، واكتب إليّ بما كانت لك من حاجة إليّ..."⁽²²⁾، وهو أسلوب يستطيع من خلاله الوصول إلى القلب من خلال الدعاء بصيغة المخاطب، وإفهام القارئ بالفكرة المطلوبة من خلال عرضها بهذا الأسلوب الشائق المحبب إلى النفس.

ومن المواضع التي جُمِلَ فيها الأداء والعرض قوله: "واعلم أن العبد لم يمانع مثل الله استتصاحا، ولا أشدَّ حيطة، ولا أعظم مجازاة، ولا أقلَّ مؤونة ومرزية، وذلك بأن الله له الدنيا والآخرة ومن فيها ومن عليها، فبلغ من غناء الرب العظيم أن أعطى عباده من دنياه ثم استقرضهم شيئا أعطاهم ليلبو بذلك أخبارهم، وينظر كيف يصنعون فيما آتاهم من فضله"⁽²³⁾، فلاحظ كيف تعددت جمل العطف في بداية الفقرة، وكانت جملا قصيرة، ومعانيها واضحة؛ مما يبعث في النفس راحة وقبولا من نغمة ألفاظها، وتعدد معطوفاتها، ثم نبصر كيف استطاع ببراعته اللغوية أن يمزج مع النص كلمات

مستوحاة من القرآن الكريم: استقرضهم، ليبلو أخباركم، ينظر كيف تصنعون؛ فتداخل هذه الصور والنصوص أعطى النص روعة وحسنا فائقا في الأداء، وهو ما يعرف بالاقْتباس.

ومن الصور التي جُمِلَ فيها الأداء وحسن قوله: "فإن استطعت ألا تشتغل عن الله وحاجته بحاجة من ضره أقرب من نفعه فافعل، فإنه من يكن في حاجة الله يكن الله في حاجته يحفظها كلها، ولا يضيع من حفظه الله، وحسبك الله كافيا"⁽²⁴⁾، فانظر كيف امتزج أسلوب الخطاب المباشر، مع فعل الأمر مع النصوص القرآنية قَالَ تَعَالَى:

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِبئْسَ الْعَشِيرُ﴾ (الحج: ١٣).

مع كلمات من الحديث النبوي الشريف: {المُسلِمُ أخو المُسلِمِ لا يظلمُهُ، ولا يُسلِمُهُ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مُسلمٍ كُرْبَةً في الدُّنيا، فرَّج اللهُ عنه بها كُرْبَةً من كُرب يوم القيامة ومن ستر مُسلماً ستره اللهُ يوم القيامة} ⁽²⁵⁾، فشكّل امتزاج هذه النصوص والأفكار لُحمة لغوية متماسكة ساعدت على حسن أدائها وبراعة عرضها، فقد اشتملت عبارته على التضاد الوارد في الضر والنفع، ضمن أسلوب الشرط المبدوء بـ (إن) التي تفيد الشك، واستعمال الفعل استطاع الدال على مزيد بذل، والتوكيد الذي أعقب الشرط بالشرط، فمكّن لفعل الاستطاعة في القلب، واستعمل الجمل المضارعة المنفية، وختام الرسالة باسم الفعل حسبك، والتمييز كافيا، فإن الحسب يعني الاكتفاء والكفاية، فأكدّه بالتمييز.

المطلب الرابع: الاقتباس القرآني

ومعنى الاقتباس: "هو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه"⁽²⁶⁾، وهذا يعني قدرة الكاتب على التسلل إلى أعماق نصه إلى نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية ويوظفها توظيفا جيدا في خدمة النص.

وقد استعمل الإمام جابر بن زيد هذا الأسلوب في مواضع عدة، نوجزها فيما يأتي:

- 1- قوله: "حتى يحمل لنا مغفرة الذنوب قبل اللزام والتناوش"⁽²⁷⁾، ولفظة التناوش مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سبأ: ٥٢).
- 2- قوله: "ولا تكن منه على حرف"⁽²⁸⁾ وهو مأخوذ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴿١١﴾ ﴾ (الحج: ١١).

- 3- قوله: "فإن الله موفي الصابرين أجرهم بغير حساب"⁽²⁹⁾، وهو مأخوذ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (الزمر: ١٠).

- 4- قوله: "والذي اطلع على ما يضمم قلبك، وما تختان عينك، وما تبدي أو تخفي نفسك، وهو أقرب إليك من حبل الوريد"⁽³⁰⁾، وهو مأخوذ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ (ق: ١٦). وفي هذا الموضوع استعمل الإمام الفعل تختان المأخوذ من قول الحق -تبارك وتعالى-: قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، مع أن الاستعمال العام تخون؛ إلا أن

الإمام ترشح ألفاظه بالاستعمال القرآني، فاستعمل اللفظ الوارد فيه.

- 5- قوله: "حتى يدخلنا به جنات النعيم إخوانا على سرر متقابلين"⁽³¹⁾، وهو مأخوذ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ

سُرُرٍ مُّنتَقِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحجر: ٤٧).

6- قوله: "فإن الله نازل من الناس على ظنهم به، فالظانون به ظن السوء عليهم دائرة السوء"⁽³²⁾، وهو مأخوذ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى:

﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنَّكَ
السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴿٦﴾﴾ (الفتح: ٦).

7- قوله: "فاعرف منزلتك من الله بما تعرف من نفسك، فإن الإنسان على نفسه بصيرة"⁽³³⁾، وهو مأخوذ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ

نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ (القيامة: ١٤).

8- قوله في جواب عن مسألة في الصيام: "فافطر حتى ترجع إلى دارك التي فيها قرارك، فإن الله يريد بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر"⁽³⁴⁾، وهو مقتبس من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِيكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِيكُمُ

الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة: ١٨٥).

9- قوله: "فلا نعلم فيه زكاة وإن كثر ثمنه، إلا ما أريد به التجارة، وما تفعلوا من خير يعلمه الله"⁽³⁵⁾، وهو مقتبس من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْوَدُوا فَاِنَّ خَيْرَ الْزَادِ النَّقْوَىٰ وَأَنْتُمْ يَتَأُولَىٰ
الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ (البقرة: ١٩٧).

10- قوله: "فإنه إن يتق الله يجعل له نورا يمشي به في الناس، ويكفر عنه

سيئاته ويعظم له أجرا"⁽³⁶⁾، وهو مقتبس من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْمَن

كَانَ مِيَّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴿١٢٢﴾ (الأنعام:

١٢٢)، وقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا

﴿٥﴾ (الطلاق: ٥).

11- قوله: "حتى عرفت الملائكة ومن سواهم من العباد أن قد بدا لهم من الله ما

لم يكونوا يحتسبون"⁽³⁷⁾، وهو مقتبس من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ

لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ (الزمر: ٤٧).

وأما الاقتباس من الحديث الشريف، فقد استعملها في مواضع كثيرة، منها الموضع
الآتي:

1- قوله: "فاقبل ما تركوا من الدية وإلا فأوفهم دينهم، فذر ما يريبك إلى ما لا

يريبك، والسلام عليك ورحمة الله"⁽³⁸⁾، وهو مقتبس من قول الرسول

صلى الله عليه وسلم: [دَعُ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ] ⁽³⁹⁾.

إذن نحن أمام عدد كبير من الاقتباسات القرآنية، وهذا يعكس مدى تشرب الإمام جابر
من معين القرآن، وتمكنه في الوصول إلى أخذ مراده من ألفاظه وآياته وتوظيفها
التوظيف المناسب ونصّه.

المبحث الثاني؛ البناء الداخلي:

المطلب الأول:

أ. الأساليب اللغوية.

تتنوع الأساليب اللغوية المستعملة في الرسائل ومن جملتها:

1- **الجمل الشرطية:** لا يمكن حصر الجمل الشرطية الواردة في الرسائل؛

لكثرتها وشيوعها، وسنورد بعض الأمثلة عليها، ثم نشرح أثرها الدلالي

على المعنى:

قوله: "فإننا نخبرك من خبرنا أنا سالمون صالحون إن سلمنا وصلحنا من الذنوب.." ⁽⁴⁰⁾، وكذلك مثل قوله: "فإن أتى صاحبك بطعام أجود من غير أن تشترك على صاحبك فلا بأس بذلك" ⁽⁴¹⁾، والحقيقة أن أسلوب الشرط وارد أكثر ما يكون في طيات أجوبته الفقهية، وهذا التردد الشرطي يعكس صورتين:

الأولى: الدقة في الجواب والوضوح، فأسلوب الشرط يختصر مسافات الغموض الدلالي، ويعطي الجواب وضوحاً لا لبسَ فيه، فيجد القارئ نفسه بين خيارات محدودة لا تردد فيها.

الثانية: مطلب الاختصار في الجواب، فالإمام جابر بن زيد يجيب على أسئلة وردت إليه، ومقامه السياسي أو الاقتصادي لا يسمح له أن يترك أجوبة مفصلة في المسألة معطياً القارئ احتمالات عديدة، فهذا ليس مقام تأليف وبحث، وإنما هو مقام فتيا، والفتيا تتطلب الوضوح والاختصار، وهذه الغاية يخدمها أسلوب الشرط بشكل كبير، لما يتطلبه من أركانه المعروفة: فعل الشرط وجوابه وأداته.

ومن هذا الأسلوب أيضاً: أنموذج التركيب الشرطي: (إن استطعت... فإن).

وهذا الأسلوب يلتقي مع أسلوب الشرط في تحقق الفعل وجوابه، إلا أن الملاحظ على هذا الأسلوب هو إضافة الفعل استطعت، وهو فعل تحقق فيه قدرة الاستطاعة، وتاء المخاطب؛ مما يعطي القارئ خصوصية ودلالة وجلباً للانتباه.

والملاحظ أن هذا الأسلوب تكرر في العنصر الثاني من عناصر الرسائل الشكلية، وهو الوصايا، فأثناء الوعظ والتذكير بالله تعالى يدخل الإمام هذا الفعل المقترن بتاء المخاطب، وتسبقه إن الشرطية من أجل جلب الانتباه وإحداث نوع من الفضول لدى القارئ؛ ليعرف الاستطاعة المقصودة، ومن أمثلة هذا الأسلوب: "فإن استطعت ألا تشتغل عن الله وحاجته بحاجة مَنْ ضره أقرب من نفعه فافعل.." (42)، وقوله: "فإن استطعت ولم تملك ذلك إلا بالله، ألا تموت إلا وأنت مسلم فافعل..." (43)، وقد تكرر هذا الأسلوب في صفحات عدة من الرسائل⁴⁴، هذا عدا الأفعال الأخرى التي اقترنت بها أداة الشرط، ولعلَّ تفرّد هذا الأسلوب في العنصر الوعظي من الرسائل؛ لأن هذا العنصر في حقيقته إضافة من الإمام على الجواب، وليس هو العنصر الرئيس من كتابته للرسالة، فأراد الإمام أن يقترب بها إلى قلوب قارئها بفعل الاستطاعة الشرطي الواضح.

2- **أسلوب الخطاب:** أسلفنا الذكر سابقا عن وضوح الألفاظ والخطابات والأساليب المستعملة في الرسائل، وهذه المرة نتحدث عن أسلوب المخاطب الذي جاءت به الرسائل كلها، فرسائل الإمام بكل عناصرها الشكلية قائمة على أسلوب الخطاب المباشر، سواء أكان باستعمال تاء المخاطبة أم ميم الجماعة المخاطبة، أم فعل الأمر المباشر: اعلم، اتق، افعل، اذكر.. وغيرها من أساليب الخطاب، وهذا يعني وضوح الرسائل وتركيزها المباشر على المخاطب، فلا وجود للضمائر المستترة، أو أفعال مجهولة، فهي تتضافر مع الأساليب السابقة في خدمة النص المباشر.

ويمكن القول إنه يستعمل ثلاثة أساليب عند الإفتاء، هي: جدية الرسائل ووضوحها ودقتها.

المطلب الثاني:

ب. العاطفة.

من الملامح الأسلوبية الفنية التي اتسمت بها المكاتبات إبان هذا العصر هي صدق الإحساس وحرارة العاطفة، وهو ما يسمى بـ: تصوير الدلالات والتصوير النفسي، وهو: "استدعاء الكلمة خلال تلقيها لمعان إضافية إلى معناها الحرفي، وبعبارة أخرى: أن يستدعي دالٌّ واحد أكثر من مدلول واحد؛ في سياق معين"⁽⁴⁵⁾؛ و"ذلك لأن بعض الكلمات تتحمل شحنة عاطفية غامرة تستشفها منها النفس إلى جانب ما يفهمه منها الفكر"⁽⁴⁶⁾، ولم تكن رسائل الإمام جابر بن زيد بعيدة عن هذا العنصر، فقد مزج الإمام رسائله بشحنات عاطفية مؤثرة وغالبة على جانبه السياسي والاجتماعي، ومنها ما يأتي:

- 1- قوله: "اكتب إليَّ بحالك، واعلم أنك ممن يعجبني صلاحه وعافيته"⁽⁴⁷⁾.
- 2- قوله: "اكتب إليَّ بما كانت لك من حاجة، واعلم أنه حبيب إليَّ توفيقك الرشد، وما ذاك إلا بالله الكبير"⁽⁴⁸⁾.
- 3- "اكتب إليَّ بما كانت لك من حاجة"، ووردت هذه العبارة ست مرات⁽⁴⁹⁾.
- 4- "وأما الذي ذكرت تقسم عليَّ أن أكتب إليك بحاجتي وتخبرني أنك بها مسرور، فزادك الله من فضله وأوفاك"⁽⁵⁰⁾.
- 5- "واكتب إليَّ بما كانت لك من حاجة فإني أحب رضاك راغب فيه"⁽⁵¹⁾.

والمتمأل في هذه العبارات يجدها مشحونة بحرارة العاطفة، ولا تخلو من إحساس مرهف، فالإمام يدبُّ خاتمة رسائله بطلب المكاتبة مرة أخرى، وكأنه يحاول مدَّ حبال الوصل بين المرسل والمرسل إليه، وهذه الطلبات عادة لا تتم إلا إذا كان الطرفان يحملان لبعضهما الود والإخاء.

إن المعاني في الصور الإيحائية تخاطب الحسَّ والوجدان، وتلج إلى القلب من منافذ شتى؛ وبذلك تتحقق "وظيفة الفن الأولى، التي هي إثارة الانفعالات الوجدانية"⁽⁵²⁾.

وبما أن الإمام ليس في مجال نظم الشعر ليستعمل أداة الوزن -مثلا- في تأثير العاطفة، فقد استعمل في نثره أداة أخرى، هي دلالة الألفاظ. فالألفاظ السابقة حملت ألفاظا عاطفية مؤثرة، مثل: يعجبني، حبيب، مسرور، أحب. وما يتبع هذه الألفاظ من أدعية بالتوفيق والرشد هي دلالات عاطفية يبثها الإمام جابر بن زيد عبر هذه الأجوبة، وإذا أضفنا الغربة التي يعيشها الإمام في البصرة، وحاله السياسي المكبوت سنفهم مدى صدقه العاطفي في مراسلة من يحب، وكذلك حرصه الشديد على سرية هذه المحادثات، فهو مثلا يخاطب طريف بن خلود قائلا: "واعلم أنه لا يعجبني أن تترك لي عندك كتابا إلا محوته، ولا تروني عني شيئا مما أكتب به إليك"⁽⁵³⁾ وقوله: "انظر -أمتع الله بك وغفر لنا ولك- ما كتبت إليك من كتاب فامحه"⁽⁵⁴⁾، فهذه العبارات تحمل إحساسا مكبوتا غير قادر على الظهور أو الإعلان عن مكاتباته.

المبحث الثالث؛ التحليل اللغوي:

اخترت رسالة واحدة بأركانها لتمثل أنموذجا؛ لأن الإمام سار على المنهج نفسه في أغلب رسائله.

مقدمة الرسالة: قال الإمام في الرسالة الثالثة: "سلام عليك... فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأوصيك بتقوى الله العظيم، واطلب بها حاجتك إلى الله، فإن العباد لم يصيبوا النجاح لما طلبوا من قبل الله بمثل التقوى..."⁵⁵.

ابتدأ الإمام الرسالة بصيغة السلام: سلام عليك، وقد جاءت الصيغة منكراً تدلُّ على الدعاء، وهذا هو مسوِّغ الابتداء بها، وكأن الإمام يحاول أن يجعل البداية عامة للجميع، وليست جوابا للسائل فقط، فالسلام شامل كامل جامع مانع.

وهو يعرف أن جوابه هذا سيصل إلى شريحة كبيرة من الناس، والحقيقة أن صيغة التذكير في السلام واردة كثيرا في القرآن، منها سلام الله للمؤمنين: **﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَلَّمَ**

قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ (يس: ٥٨)، وكذلك سلام الملائكة للمؤمنين: **﴿ قَالَ تَعَالَى:**

﴿ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(النحل: ٣٢)، وكذلك سلام المؤمنين لأنفسهم: **﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا**

الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

(إبراهيم: ٢٣)، ونحو ذلك، فهو أسلوب قرآني يُنزلُ السكينة التامة على قلوب من يتلقاها.

ثم تابع الإمام قوله بعد السلام بـ: **﴿ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وبدايته بـ إنَّ** المؤكدة مع ياء المتكلم تدل على تخصيص الإمام واهتمامه الشخصي بمقام من يكتابه ومنزلته، ثم استعمل الإمام الفعل المضارع **﴿ أحمدُ؛** للدلالة على التجدد والاستمرار، وأن الحمد متواصل مستمر، و**﴿ عَدَّهَا** بحرف الجرِّ إليك المتصل بكاف الخطاب، وهو تخصيص الحمد لله -تعالى- ليصل إلى الشخص الذي يكتب إليه، فكأنه يرسل حمد الله -تعالى- إلى من يعزُّه، ففي ذلك دلالة على رفعة مكانته، وعلوُّ منزلته، وهكذا كانت بدايته في الرسالة تدل على الفخامة والرقي في الخطاب، فهي دعاء يراد منه التعميم في زمان ومكان، ثم تخصيص في الخطاب؛ لبيان رفعة ومكانته، ثم **﴿ تَلَطَّفُ** بالدعاء، وورد فيه جملة التوحيد: **﴿ الجملة الاسمية المصدرية بـ لا النافية للجنس؛** لما فيها من نفي وإثبات، التي تدل على قدرة الله الذي بيده كل شيء، والسلام كله، ثم أوصاه، ووردت الوصية بالفعل المضارع الذي يفيد في أصل وضعه الاستمرار، المفضي إلى استحضر التقوى دائما، إذا أرادوا نجاح أعمالهم، وإنجاز مهماتهم، وأنه لا مدخل لإصابة الأهداف وتحقيق المنى والآمال إلا من طريق واحدة، تقوى الله -عزَّ وجلَّ.

وقد استعمل في ترسيخ هذا الفهم وذاك المضمون أسلوبَ القصر، إذ قصر تحقيق تلك المقاصد لتحقيق التقوى أولاً، وهو تعليمٌ فريد لكل سائلٍ ومستفتٍ.

الوصايا: مما قاله الإمام في هذا الركن من الرسائل: "... وكلُّ الذي يُصنع به صغير فيما يصيب بعد إفضائه إلى ربه الساخط عليه غير لم يُؤخذ أخذه أحد، ولم يوثق وثاقه أحد، فينسيه الذي لقيَ في مضجعه ما أصابه عند الموت، وينسيه الذي أصابه من الهوان في مرقدِه الذي أصابه عند مبعثه، وينسيه كل الذي سبق إليه من نار الله الكبرى إن وقف به في النار أسيراً: يداه إلى عنقه في الأغلال، ورجلاه موثوقتان إلى ناصيته، عليه كسوة يأكل بعضها بعضاً على جلد لا يتمالك الذي يصيبه من الحريق أن يحترق، فيكسى جلداً غصّاً رقيقاً مع مزيد في الذي ذكر الله وما لم يذكر، وكفى بالذي ذكرَ شقاءً وعذاباً..." (56).

وهذا النص مكتنز بالمعاني الدلالية والصور البلاغية والجمال اللغوي في الصياغة والتأثير، فالنص الذي حذفنا منه كثيراً -بسبب طولهِ- يتكوّن من جمل متماسكة لغويًا سبغًا وحبغًا، تربطها أدوات العطف: الواو والفاء، وكأنه يصنع لُحمة واحدة يوصلها إلى القارئ بكل يسر ووضوح، كما أنه استعان بألفاظ وبنصوص قرآنية أعطت عمقاً معنويًا كبيراً كما في: لم يُؤخذ أخذه أحد، ولم يوثق وثاقه أحد، واحتوى النصُّ على كلمات كانت رابطة لفظياً تربط بين جملها، وتجعلها متناغمة شديدة الترابط، مثل: يُنسيه، التي تكررت ثلاث مرات في جمل متتابعة، ثم أبدع الإمام في إعطاء صورة بشعة من خلال تصوير العذاب في داخل جهنم -والعياذ بالله- إذ ابتدأ بالجملة الاسمية: يداه إلى عنقه في الأغلال..؛ للدلالة على الثبوت ولزوم العذاب واستمراره، كما أنه نص مقتبس من القرآن: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيَّ اعْتَنَقَهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ

(غافر: ٧١)، فهو يوضح تفسير الآية في أسلوب الضمير الغائب، كما وردت

في الآية بضمير الغائب.

وفي هذا دلالة على ضرورة الاستعاذة من النار، والابتعاد عنها حتى في الخطاب اللغوي وطريقة الحديث، ثم اختتم الإمام النص بالتمييز: وكفى بالذي ذكر شقاء وعذابا؛ لما في التمييز من دلالة أقرب للمعنى، وأوضح للمبنى، وأشمل للدلالة.

ذكرُ السلامة والعافية: قال الإمام: "أما بعد، فإننا سالمون صالحون إن اتقينا الله بحقه، وقد أتاني كتابك تذكر فيه أني من أهل ودك وصنيعتك ومناصحتك لما جعل الله بيننا وبينك من الإسلام، فهو أفضل النسب، وأفضل ما تواصل الناس به وتشبَّثَ حبلمهم بحبله"⁽⁵⁷⁾.

ابتدأ هذا الركن من الرسائل بجملة: أما بعدُ، وهي عبارة عن (أمّا) الشرطية التفصيلية، و(بعدُ) الظرفية، وهذا الأسلوب عادة يأتي بعد المقدمة في الرسائل أو الخطب، وهو يأتي قبل مباشرة الخطاب الأساسي للموضوع؛ لذلك سموها بـ فصل الخطاب، وقد أتى بعد ذكر الوصايا ليشرع في تفصيل ما كُتِبَ لأجله الرسالة.

ثم ذكر الإمام: إنا سالمون صالحون إن اتقينا الله بحقه، وهي جملة اسمية مؤكدة بـ (إن) المتصلة بالضمير (نا)، الذي يفيد الاعتزاز بذلك، وأنهم ذوو قدم راسخة في السلامة والصلاح، وقد حملوا النية في ذلك، على اعتبار أن اسم الفاعل يحمل النية، كما في قوله تعالى: (الذين هم للزكاة فاعلون).

ونلاحظ أن ذكر السلامة جاء مقيدًا بجملة الشرط: إن اتقينا الله بحقه، وفي ذلك تعبير قوي عن حقيقة السلامة والصحة في أنها في الحقيقة هي المرتبطة بالتقوى، فهو يشترط حصولها حتى يُعدَّ سالما، وإلا فلا مكانة للسلامة والصحة دون تحقق التقوى؛ ولذلك استعمل اسم الفاعل: سالمون، صالحون؛ للدلالة على أن تقرير السلامة والصحة منقرَّرٌ بيده، وقوام ذلك التقوى.

ثم عطف الإمام الجملة بقوله: وقد أتاني؛ مستعملا (قد) التحقيقية المرتبطة بالفعل الماضي، وهي تفيد تأكيد وصول الكتاب، ونلاحظ أن الإمام استعمل ضمير الخطاب (الكاف) في هذه الفقرة القصيرة خمس مرات، وكذلك استعمل ضمير المتكلم خمس مرات، وهو تكافؤ في حسن الحديث وتناغم الخطاب، مع ذكر صيغة التفضيل (أفعل) مرتين برهانا على مكانة الإسلام في وصل الأنساب، وتقوية حبال الود ووشائج الإخاء.

الجواب الفقهي: قال الإمام في هذا الركن: "أما الذي ذكرت من رجل لا يعرف له وارث إلا أم له مملوكة فعنت قبل أن تقسم الميراث فإن والدته ترثه إن لم يكن أحد أحرز الميراث لحقه..."⁽⁵⁸⁾

يمضي الإمام في أجوبته الفقهية بهذا الأسلوب المحتوي على أما التفصيلية التي تتطلب حوايا مرتبنا بالفاء، وهو أسلوب واضح يجعل المخاطب أمام جواب محكم ومقيد بكلمات مختصرة، كما أنه يجعل كل مسألة في فقرة قصيرة مبدوءة بـ (أما) التفصيلية، وهو تنظيم مثالي في الجواب، يجعله مفهوما، يرسخ في الذهن والعقل، ويُتذكر كلما عاود السائل أو المستفتي.

الخاتمة: قال الإمام في ختام الرسالة: "واكتب إليّ بما كانت لك من حاجة، واعلم أنه حبيب إليّ توفيقك الرشيد، وما ذاك إلا بالله الكبير. نسأل الله الكبير المتعال أن يوفقنا وإياك للتي هي أحسن حتى يرضى بذلك عنا، والسلام عليك ورحمة الله"⁽⁵⁹⁾.

تتكون الخاتمة عادة من ذكر السلام، فكأن الرسالة تقع بين مفتاح السلام، وقُل السلام، وهو مطلع رائق يرشح عنه تأثر الإمام كثيرا بحقيقة السلام والصحة والعافية التي تتكرر كثيرا في كل رسائله من مطلعها مرورا بوسطها، وانتهاء بخاتمتها.

وكانت بداية فقرة الختام بواو العطف للربط بين الجواب والخاتمة، وكذلك استعماله فعل الأمر: اكتب إليّ، المتعلق به ياء المتكلم، أي: اكتب إليّ ما تريد، وأرسل به إليّ أجبك، وفيه كناية عن سعة العلم والتبحر فيه، وأن السائل عندما يرتكن في سؤاله يرتكن إلى ركن شديد وعلم أكيد، وفي ذلك تخصيص واستعراض رغبة الإمام شخصيا في خدمة مَنْ كتب إليه بحاجاته، وأنه واجدٌ ظهرا قويا، وسندا صفيًا، مستعملا الصفة المشبهة حبيب المتعلق بها ياء المتكلم، وكذلك استعمال المصدر توفيقك فاعلا للخبر حبيب متعديا إلى مفعول به الرشد، وهذه الجملة: واعلم أنه حبيب إليّ توفيقك الرشد؛ تعد غاية في التداخل النحوي والتعلق اللفظي، فوقع حبيب خبرا لـ (أن)، ورورد توفيقك مصدرا مضافا إلى فاعله ناصبا مفعوله على شاكلة قوله - تعالى:- **قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾** (المائدة: ١٣)، وكما تقول: يسرني

احترامك والديك، أي: توفيقك إلى الرشد وصواب الطريق.

فقد عملت الصفة المشبهة حبيب في المصدر بعدها فاتخذته فاعلا لها، وهو فاعل مضاف -كما سبق- إلى فاعله ناصب لمفعوله، وفي الجملة: فهو أمر يجعل ختام الكلام أشبه بدعاء أن يوفق إلى الرشد، وثبات القلب على الطريق المستقيم، فبدأت بالسلام، وختمت بالدعاء، وبينهما الجواب مختصرا، وهو منهج قويم في الفتيا يدفع إلى الاستقامة والرضا والعود الصادق إلى الطاعة وحسن الالتزام.

الخاتمة ونتائج البحث:

- لم تكن رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي رسائل فقهية عادية، أو أجوبة مختارة فحسب، وإنما كانت رسائل تحمل في طياتها سمات وخصائص أدبية ولغوية، فعندما يخرج نص في القرن الأول الهجري بهذه القوة من التماسك والمنهجية الثابتة في صياغته وكتابته، فهذا يُنبئ عن عقل واع مفكر، ودرجة لغوية قادرة على اختيار المنهجية الواضحة؛ ولذلك كان الشكل الخارجي للرسائل ثابتا وقويا حتى نستطيع القول بوجود خطة بحث يمشي عليها في الكتابة والتأليف.
- اتبّع الإمام جابر بن زيد أسلوب التفرّيع في الإجابة على الأسئلة الفقهية، وهو أسلوب قرآني يتميز بوضوحه في إزالة اللبس، ورفع الإشكال عن السائل.
- اعتمد الإمام أساليب الخطاب المباشر، وأكثر من أفعال الأمر وكاف الخطاب؛ لأجل التأثير، وخلق أسلوب القُرب النفسي والذهني، وهذا أسلوب يجذب الأذهان، ويقربّ الأفهام، ويمنع زوال العقل في شيء غير المكتوب أمامه.
- أكثر الإمام جابر بن زيد من استعمال أسلوب الشرط في رسائله، وخصص الفعل استطعت في أسلوب الشرط كثيرا؛ لأجل مزج الشرط بالخطاب، ومزج الخطاب المباشر بالاستطاعة.
- تشبّع الإمام بجمل وتراكيب البنية والأساليب القرآنية، حيث استعمل البنية الصرفية القرآنية كثيرا كما في: تختان، والتراكيب اللغوية، والاستعمالات التي تنتشر في القرآن الكريم، ووظفها سياقيا.
- استعمل الإمام ألفاظ التأثير العاطفي كثيرا؛ للإشارة إلى بعض الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي تمر بها تلك الحقبة الزمنية، كما أنها تعكس جانبا من شخصيته القيادية.
- تميّزت الرسائل بروعة العرض، وجمال الأداء، وقدرته اللغوية على التأثير النفسي، لا سيما في العنصر الثاني؛ أي الوصايا، واستغلّ إثارة العاطفة فيها،

وهذا يعكس حضور الإيمانيات لديه، ووجوب ربطها بكل علم سواء أكان
فقهيا أم عقديا أم غيره.

الهوامش:

- (1) ينظر: الجعيري، فرحات بن علي، مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، مكتبة الضامري، ط1، 1434هـ-2013م، الصفحات: ص39 ص44.
- (2) ينظر: خليفات، عوض، نشأة الحركة الإباضية، عمان، 1978م، ص86.
- (3) ينظر: بَكُوش، يحيى محمد، فقه الإمام جابر بن زيد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ-1987م، الصفحات: ص9 إلى ص77.
- (4) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص24 ص25.
- (5) ينظر: الدرجيني، أحمد، طبقات مشائخ المغرب، تح: إبراهيم طلاي، مطبعة البحث، فسنطينة، الجزائر، ج2، ص211.
- (6) البطاشي، سيف، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان، ط3، 1431هـ-2010م، ج1، ص79.
- (7) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص27.
- (8) نفسه، ص74.
- (9) نفسه، ص27.
- (10) نفسه، الصفحات: ص137 ص156.
- (11) شعيب، محمد عبدالرحمن، الفكرة في الأدب، دار التأليف، القاهرة، 1975م، ص138.
- (12) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص76.
- (13) ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص366 (هرق).
- (14) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص82.
- (15) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص636 (غيب).
- (16) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص103.
- (17) الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم، ج4، ص2290 (ذلق).
- (18) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص108.
- (19) شمس العلوم، ج5، ص5186 (فسط).
- (20) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص124.
- (21) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص363 (حلب).
- (22) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص102.
- (23) نفسه، ص106.
- (24) نفسه، ص83.
- (25) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الكبير، تح: حمدي عبدالمجيد، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1994م، رقم13137، ج12، ص287.
- (26) القزويني، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت، ط4، 1998م، ص381.

-
- (27) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص78.
- (28) نفسه، ص91.
- (29) نفسه، ص97.
- (30) نفسه، ص111.
- (31) نفسه، ص121.
- (32) نفسه، ص124.
- (33) نفسه، ص130.
- (34) نفسه، ص141.
- (35) نفسه، ص148.
- (36) نفسه، ص150.
- (37) نفسه، ص151.
- (38) نفسه، ص142.
- (39) رواه ابن حبان في صحيحه رقم722، تح: شعيب الأرنؤوط، مكتبة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ-1998م، ج2، ص498، والترمذي رقم2518، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص668.
- (40) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص78.
- (41) نفسه، ص135.
- (42) نفسه، ص83.
- (43) نفسه، ص104.
- (44) وردت في الصفحات الآتية: (83، 92، 93، 103، 104، 111، 118، 124، 128، 130).
- (45) محمد، الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م، ص184.
- (46) شعيب، محمد عبدالرحمن، في النقد الأدبي الحديث، دار التأليف، القاهرة، ط1، 1967م، ص201.
- (47) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص81.
- (48) نفسه، ص90.
- (49) نفسه، الصفحات: (96، 102، 114، 117، 119، 136).
- (50) نفسه، ص112.
- (51) نفسه، ص136.
- (52) ينظر: قطب، سيد، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشرق، (بيروت-القاهرة)، ط5، 1403هـ-1983م، ص131.
- (53) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص126.
- (54) نفسه، ص136.
- (55) نفسه، ص82.

(56) مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ص 85.

(57) نفسه، ص 85 ص 86.

(58) نفسه، ص 86.

(59) نفسه، ص 90.

المصادر والمراجع:

- البطاشي، سيف، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان، ط3، 1431هـ-2010م.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي (المتوفى: 354هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مكتبة الرسالة، ط1، بيروت، 1408هـ-1998م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر، تهذيب اللغة، تحقيق: أحمد البردوني، الدار المصرية للترجمة والتأليف.
- بَكُوش، يحيى محمد، فقه الإمام جابر بن زيد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ-1987م.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجعبري، فرحات، مقدمة تحقيق رسائل الإمام جابر بن زيد، مكتبة الضامري، ط1، 1434هـ-2013م.
- الحميري، نشوان بن سعيد الحميري اليميني (ت: 573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإيراني و د. يوسف محمد عبد الله، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1420هـ-1999م.
- خليفات، عوض، نشأة الحركة الإباضية، عمان، 1978م.
- الدرجيني، أحمد، طبقات مشائخ المغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البحث، قسنطينة، الجزائر.
- شعيب، محمد عبدالرحمن، الفكرة في الأدب، دار التأليف، القاهرة، 1975م.
- شعيب، محمد عبدالرحمن، في النقد الأدبي الحديث، ط1، دار التأليف، القاهرة، 1967م.
- القزويني، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ط4، دار إحياء العلوم، بيروت، 1998م.
- قطب، سيد، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط5، دار الشرق، (بيروت، القاهرة)، 1403هـ-1983م.

-
- محمد، الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م.
 - الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبدالمجيد، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1994م.